قصة العمر

سليمان العيسى

« الى ضفاف دجلة الغالية .. الغالية.. ملاعب الصبا.. وذكريات الدراسة والشباب .. هذه النسمة العطشى من أنسام بردى .. بردى الذي كان ـ وما زال ـ يعرف الى أهله الطريق .. ويعرفون اليه الطريق ..»

أين بغداد ؟ تحتويها اليدان واللهيب العتيق .. والشفتان
يا بقايا من الضلوع تحداك .. تحدى رمادك العاشقان
اهصريني على اللقاء دموعا وليزغرد في صدري الحيّان
قصة العمر .. لم أكن غير حلم لم يكن غير نبضة ديواني
نبضة .. تنبع السماوات منها والثرى..كي تضبّ في الانسان
نبضة..سمّها تمزق جلدي (١) قادم من مقابر البركان
قادم من مخالب الذئب والافعى .. وميلاد أمة في بناني
عربيّ .. بيتي أنين الملايين .. وتاريخ قهرها عنواني
قصة العمر .. لم أزل أتحدى أنا أقوى يا موت من أكفاني
ما أبالي .. بعض يحشرج في الدرب كسيحا أو ينتهي .. سيّان
ما أبالي .. تيبّست بعض أوراقي .. جذوري والدهر لا يفنيان
بانتظاري التاريخ .. فليلهو من شاء ، ويركع ، للاختيار الجبان
هزمتني القبور دهرا .. وقاومت ، وكسّرت في الصمود سناني
وخرجنا من الغبار .. فماذا ؟ السما والعروبة الباقيان
أنا أقوى من التوابيت ، أقوى من جدار الضباب في أجفاني
أسحق الليلَ والسواد بأطفالي ، وباق على الشموس رهاني

* * *

قادم من مقابر الضوء ، والحب ، وأنشودة تلفّ كياني
أتملّى بين الرصافة والجسر شبابي ، وأستعيد عناني
وعيون المها بريق حسامي وهدير التاريخ عرف حصاني
ودمشق الجذور ، فارسة الحلم .. نداء مجرّح في جناني
ما جفاني الحبيب الا تزودت اليه ما تملك المقلتان
ما تبقّى في القلب من حرقة عطشى ،
وشعر ،
وصبوة ،
وافتتان
واختصرت الزمان .. أي زمان في حساب الهوى..وأي مكان؟
وارتمى العاشقان في اللهب العذب .. وضاعت في القبلة الشفتان

* * *

أين بغداد ؟ وابدئي يا زحوف القهر .. هيا ارسميه شكل الزمان !
ابدئيها .. مسيرة الدم والدمع .. ومن قطرة .. الى طوفان
من جذور العذاب .. من عتمات اليأس هيا .. الى الصباح القاني !
الصباح الذي انتظرناه حتى «شمخة» العار، و «اعتداد» الهوان
وضريح ينشقّ اثر ضريح لرؤانا ، لنبضنا الحرّان
الصباح الذي نعاه الينا وتولّى عزاءنا الثقلان
الصباح الذي يقول : أنا البعث .. وباق على الحياة رهاني
باقيان الدماء ، والوحدة العطشى ، يطول السرى ، وينتصران
قادم من مقابر الضوء .. وهران بكفّي ، والنيل ، والدجلتان
من دماء الاوراس ، من دمع يافا من جذور النخيل والسنديان
قادم .. في عباءتي أخزن الشمس ، وقبري عصاي والقدمان

(١) رمز للتجزئة في وطننا العربي الكبير .

ومخيف .. اذا توحّد .. قهري وحرار اذا التقت نيراني
قادم بالضياء ، بالحب ، بالشعر ، بصهر الاشجان في الاشجان
أين بغداد ؟ وسعي حلقة العرس .. جناحا قبلتي آتيان
ابدئي العزف .. تنتفض هذه الدنيا ، وتعشب على يدي الاغاني
ابدئي العرس .. ربما
جنّت الارض والسما
ورمتنا سود الطيور الابابيل
بقديم الحقود ، بالنار ، بالسجّيل
ابدئيه .. أي الخسائر نخشى ؟
حين يمسي وجودنا الضخم نعشا
وترابا ممزقا
وملايين للشقا
وفتات الفتات من خبز أرضي
للصوص الدنيا كنوزي وأرضي
وعبيدا بلا ثمن
كان يوما لها وجوه
كان يوما لها وطن

* * *

ابدئيه بغداد .. كل الاضاحي بانتظار النفير .. كل الاماني
كل دمع ما زال في جفن سنا كل جرح ما زال في الجولان
ابدئيه ونحن وقدته الاولى .. أطهّر بجمره أحزاني
ابدئيه .. تنهدّ كل المتاريس .. وينهض ما ليس في الحسبان
تتفجّر على الرمال ينابيعي ، ويمشي العطشان للعطشان
ابدئي الزحف .. كل حبة رمل في انتظار الصهيل والفرسان
لم نفجّر بعد الفتيل .. أخوفا ؟ ألف عمر .. أبيعه بثواني
كانفلاق النواة .. يولد شعب يوم يختار صرخة الميدان

* * *

يابنة الشمس .. في سعيرك درّبت لهاتي شعرا ، ورضت لساني
اهدئي في جوارحي ، واستريحي ساعة في دمي، وصوغي بياني
وأعيدي اليّ ظل شبابي واسفحيني على المدى العريان
طفلك العائد المجرّح يا بغداد ، لم يبرح القصيّ الداني
أبدا أزرع الطفولة في دربي ، وأقتات وهجها في كياني
أبدا أحمل الفجيعة لي زادا ، وألقي في وجهها عنفواني
أبدا .. لم يمت بمبلادنا الجبار حلمي ، ولا انتهى ايماني

* * *

طفلك العائد المجرّح ، هاتي ليلة العرس خمرتي ودناني !
ورفاقي من كل جرح وآه وعيون الى الخلاص رواني
واجمعي في حديقة الصبح أطفالي ، وقولي للشمس : هذا أواني !

* * *

قادم من مقابر الضوء شعبا عربيا يعيد رسم الزمان
آه يا بيتنا الحزين شمالا لو سقاك الذي مسائي سقاني

دمشق